المدلول الحضاري بين أفقه الشرقي والغربي

واعـر آسيا

أستاذة وباحثة – جامعية –

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – قسم الفلسفة–

القطب الجامعي البوني جامعة باجي مختار– عنابه –

الحضارة في اللّغة هي الإقامة في الحضر، والحضرُ خلاف البدو هذا الأخير الذي يُقيمُ في البادية والذي يهتمُّ بالزراعة وبتربية المواشي لتحصيل ما هو ضروري للمعاش، أمّا الحضر فهم يعتمدون بالدرجة الأولى على الصناعة[1] والتجارة ممّا يجعل مكاسبهم أكثر من مكاسب أهل البدو؛ واصطلاحا فهو يُطلق على جملة من مظاهر التقدم الأدبي والفني والعلمي والتقني التي تنتقل من جيل إلى جيل في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات متشابهة[2].

وإذا كانت الحضارة في مجملها هي "ثمرة أي مجهود يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته على وجه الأرض ماديا ومعنويا"[3] فقد اتخذت الحضارة صورا مختلفة عبر تاريخها الطويل، "كالحضارة البابلية"[4]، و"الحضارة الفرعونية"[5]، و"حضارة الهند"[6] و"الصين"[7]، حضارات في صُور مختلفة ولكلّ منها مبادئها وعقائدها وإديولوجياتها شهدها ولا يزال تاريخ الفكر الإنساني من عالمه القديم إلى يومنا هذا، حضارات غيرت من النهج الحياتي والسلوك الإنساني عامة، فمن رجل بدائي يستخدم أبسط الوسائل من حجر وخشب وورق خضع لحقب زمنية طويلة لسيطرة الطبيعة إلى رجل أصبحت بيده مختلف الأدوات التي ابتكرها والتي جعلت منه السّيد المتحكم بنسب متفاوتة في جميع أموره.

وتعتبر الحضارة الإسلامية أبرز الحضارات التي عرفها تاريخ الفكر الإنساني والتي شهدتها الإنسانية جمعاء، إنها حضارة قد خرجت من رحم الدعوة المحمديّة، هذه الأخيرة التي كانت تسعى لتحقيق غاية وحيدة ألا وهي إرساء عقبدة التوحيد وارتضاء الإسلام دينا، مع النظر إليه على أنه – عقيدة[8] وشريعة[9] "[10].

وبتطبيق كل ما جاء في تعاليم الشريعة الإسلامية السمحة وتبعا للوقوف على أبعادها أرسى المسلمون حضارة فريدة من نوعها ألمت بجميع الأسس والمبادئ لإرساء قواعد حضارية بكل ما تحمله الكلمة من معنى فبلغت من الرقي والازدهار ذروة لم يشهد لها مثيل.

لقد كانت الحضارة الإسلامية حضارة روحية معنوية بالدرجة الأولى وهذا واضح جلي لأي مستقرئ لها بل يمكن القول أننا أمام يوطوبيا حقيقية التّي لطالما حلُم بها ولا يزال العديد من المفكرين والسياسيين منذ أزمنة غابرة ذلك أنّ الجانب الروحي المعنوي الذي عُجت به الحضارة الإسلامية يُعد الجوهر والأساس الذي يقوم عليه المدلول الحضاري، هذا الجانب الذي تندثر الحضارات بغيابه وتنحط.

لقد عني الإسلام بالجانب الروحي سيما المثل العليا والقيم الأخلاقية بل كان الدين الإسلامي بأكمله سلوك ونهج في التعامل، وهذا بين جلّي في قوله صلّى الله عليه وسلّم " **إنّ أقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا**"[11]، لذا لم يحد الإسلام عن القيم والأخلاق وصانها بسلطان الشريعة.

لقد نظر القرآن الكريم إلى الإنسان بنظرة تكريم وهذا بين في قوله تعالى " **ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**"[12]، كما حثّ على القيم المثلى ونهى عن الرذائل والفواحش؛ فأمّا عن القيم المثلى نذكر منها:طهارة النفس والبدن، التخلق بخلق الاستقامة والحياء، غض البصر، كظم الغيظ، الصدق التواضع، الثبات، الصبر، الاعتدال في الأمور، الرفق في كل شيء، إخلاص النية، البر بالوالدين، التربية الأخلاقية للأولاد وللأسرة، تأسيس الأسرة على أسس قوية متينة من خصال مطلوبة والرضا الحر والمتبادل ليكون الزواج رابطا مقدسا يعُجُّ بالمودّة والرحمة؛ أداء الأمانة، الوفاء بالعهود، العدل، السخاء، الكرم، الإحسان، حسن الجوار، الاهتمام بالسّلام والدعوة إليه دون إكراه، حرية المعتقد، ونهى عن الانتحار، الكذب، النفاق، البخل، الإسراف،التعالي والكبر،التعلق بالدنيا، الحسد، تعاطي الخمر وتناول الخبائث، أخذ المال الحرام، قيام علاقات محرّمة وغير سوية، عقوق الوالدين، قتل النفس، السرقة، الغش،الربا،تبديد مال اليتيم، الظلم، عدم الوفاء بالعهود، الغدر، الخداع، قول السوء، التجسس، الافتراء الغيبة،القذف...الخ) [13].

إنّ هذه التعاليم –وغيرها كثير– من المبادئ الإسلامية السّمحة كانت نهج المسلم في تعامله مع الآخر سواء أكان مسلما أم لا، الأمر الذي أدى إلى اقتناع الكثيرين بهذا الدين الرباني، طالما أنّ الحق الإنساني دائم الحفظ والرعاية خاصة عندما يتعلّق الأمر بحقوق المدنيين والأسرى أثناء الحروب "فالشأن في الحروب أنها يغلب عليها روح الانتقام والتنكيل لا روح الإنسانية والرحمة وهذا ما هو متعارف عليه لكن الإسلام كان له منهج إنساني تحكمه الرحمة"[14]، فتأمل قوله **صلّى الله عليه وسلّم** وهو يأمر قادة جيشه حين التصدي للعدو أو أثناء فتوحاته: " **اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا**"[15]، كما أنكر **الرسول صلّى الله عليه وسلّم** قتل النساء والصبيان في الحرب[16]، وحذّر من ظلمهم أو انتقاص حقوقهم وجعل نفسه الشريفة خصما للمعتدي عليهم إذ قال: " **ألا من ظلم معاهدا، أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة**"[17]. فأيُّ حضارة من الحضارات الإنسانية قد قالت بهذه المبادئ العلى وتعاملت بهذه القيم المثلى عدا الحضارة الإسلامية، ثم ما محل هذا ونحن في زمن يُقتل فيه الرضع والحوامل والشيوخ والعزل بأبشع الطرق وبأدنى الوسائل.

حتى أنه صلّى الله عليه وسلّم حين مرّت عليه جنازة قام لها فقيل له إنّه يهودي فقال " **أليست نفسا**"[18] فالقاعدة المستنبطة من تعاليم الشريعة الإسلامية السمحة لسان حالها يقول: "احترام كلّ نفس إنسانية طالما لم تظلم أو تعاد".

ازدهار روحي لم يّعرف له مثيل صاحبه ازدهار علمي أيضا، فمن أهم ما دعا إليه الإسلام " العلم وإعمال العقل" والتفكر في ملكوت السموات والأرض وهذا بيّن واضح في غير ما آية، يكفي أنّ أوّل آية قد نزلت هي آية تحث على القراءة التّي هي مفتاح كلّ علم " **اقرأ باسم ربك الذي خلق**"[19] وكقوله أيضا **جلّ جلاله "إنّ في خلق السّموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفعُ الناس وما أنزل اللهُ من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابة وتصريف الريّاح والسّحاب المُسخّر بين السّماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**"[20] وقوله أيضا **عزّ وجلّ "إنّما يخشى الله من عباده العلماءُ**"[21]؛ كما نجد أحاديث نبوية كثيرة، حثت على العلم ودعت إليه؛ لذا وطبقا لهذه التعاليم انكب المسلمون على التأمل والتفكر والتدبر في جميع المجالات العلمية

والفكرية، منطلقين أولا في الاجتهاد بكل ما يخص العلوم الشرعية من جمع وتفسير للقرآن الكريم[22]، وجمع أقوال المصطفى صلّى الله عليه وسلّم[23]، ثمّ من هذين الدعامتين ابتدأ البحث والدرس في العلوم الأخرى فكان هناك تزاوج صريح بين العلوم الأخروية والعلوم الدنيوية أفرز لنا حضارة من أبرز الحضارات الإنسانية قاطبة.

لقد حث الإسلام على العلم وإعمال العقل، وعلى التفكر والتدبر فاجتهدت العقول الإسلامية في ذلك وكلّلت أبحاثهم بإنجازات وإبداعات في جميع المجالات العلمية والفكرية، إنجازات تحدث عنها ولا يزال ثلّة من المفكرين وجمعت حتى يتبين فضل هؤلاء في خدمتهم للعلم وللإنسانية جمعاء[24]، إنجازات طالت جميع المجالات. إذ يمكن القول أنّ الحضارة الإسلامية كانت أوّل من اهتم بإنشاء منشآت نهضوية علمية تمثلت في تأسيس معاهد البحث والتدريس والجامعات والمستشفيات، حتى من المساجد كانت في أوّل حالها مراكز للعلم والتعليم فضلا عن كونها محلاّت للعبادة وللذكر والاجتماع، فكانت حلقات التعليم تعقد فيها وكان أقدم هذه المراكز مساجد البصرة والكوفة التي كانت أقدم معاهد للبحث في تاريخ الحضارة، كما كانت الكتاتيب بمثابة المدارس الابتدائية التي تعمد إلى حفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة وإتقان مبادئ الحساب والشعر ورواية الأخبار[25].

فكثرت بذلك المعاهد العلمية والجامعية خدمة للعلم وللإنسانية، وكان من أبرزها "بيت الحكمة" ببغداد التي ازدهرت **زمن المأمون**[26] وجمع فيها مشاهير العلماء والباحثين والمترجمين وتولى إدارتها علماء بارزون من أمثال "**حنين بن إسحاق**" و" **الخوارزمي**"[27] فكانت بإيجاز من أشهر مراكز البحث والترجمة في الحضارة العربية الإسلامية.

كان الفكر في أوّل أمره كزمولوجيا ولقد اقتصر اشتغال المفكرين اليونان عليه من زاوية تأملية فلسفية بحتة كالبحث في أصل الأشياء والمادة الأولية التّي تتكون منها – الهيولى- فلوحظ اختفاء الجانب العملي في العلوم الطبيعية فلم تكن هناك مخابر ولا تجارب علمية، وبعد أن وقف العلماء المسلون عليها وهذا بعد ترجمتها إلى العربية كما وقفوا على ما كان في جعبة الحضارات القديمة، انتقلوا إلى مرحلة كانت على قدر كبير في تطور العلوم الطبيعية ؛ فبحثوا فيها مستقلين عن المعارف والآراء السابقة وطوّروها كما وكيفا بإدخالهم لعنصر التجربة والاختبار، ومهدوا لها بأن تكون علوما مضبوطة قائمة على أسس دقيقة[28].

لقد فلح علماء العرب " **كجابر بن حيان**"[29]، و" **الرازي** "[30]، و"**ابن سينا**"[31] و"**ابن الهيثم**"[32]، و"**البيروني**"[33]...الخ) – وغيرهم – ممن استطاعوا أن يصححوا الكثير من الآراء والنظريات والمفاهيم الخاطئة التي وضعها اليونان في تفسير الظواهر الطبيعية، إذ لم يكونوا أبدا مجرد ناقلين ومترجمين بقدر ما أبدعوا علوما جديدة وصحّحوا الكثير من الآراء العلمية المتداولة سابقا؛ ومن بين هؤلاء "**الحسن ابن الهيثم**" الذي يعد من أبرز علماء الحضارة العربية الإسلامية في الرياضيات والعلوم الطبيعية لاسيما الفيزياء في حقل الضوء والبصريات بل كان "**الحسن ابن الهيثم**" وعلى حد تعبير "**جورج سارطون**" من أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى، ومن علماء البصريات القلائل المميزين في العالم، وأنه ليس من المبالغة إذا عّد واضع علم الفيزياء والبصريات ومقرر أسسها ومبادئها العلمية الصحيحة، وهذا يتجلى في الآراء والقوانين الفيزيائية التي توصل إليها، وبحثه في العدسات وقوانين الضوء، "**فابن الهيثم** " كان مبدعا فيزيائيا تحدّى سلطة "**إقليدس**"[34] كما تحدّى سلطة "**بطليموس**" مخالفا بذلك آراءهما الخاطئة في الضوء وفي تفسيرهما لرؤية الأشياء إذ ذهب كليها على أنّها تتم بانبعاث الأشعة من العين إلى الأجسام ولكن "**ابن الهيثم**" أثبت العكس أي

أنّ الرؤية إنّما تحصل من انبعاث الأشعة من الأشياء إلى العين، هذه النتيجة التي توصل إليها بعد دراسات جادة ومعمقة إذ بحث في تشريح العين ووظائف أجزائها المختلفة وصنّفها في بحوث جملها كتابه المشهور "كتاب المناظر" في البصريات والضوء وقد ترجم إلى اللاتينية وعُدّ من الكتب المدرسية المعمول بها في أوروبا إلى مطلع العصر الحديث، كما بحث في أهم الظواهر الضوئية كانتشار النور، وفي انعكاس الضوء وانكساره، وأجرى تجارب لقياس سقوط الضوء...إلى غير ذلك من الاكتشافات العلمية التي وصل إليها والتي لا يتسع المقام لذكرها.

وجانب آخر اجتهد فيه العلماء المسلمون ولم يكن له أن يصل إليه من التقدم لما هو عليه الآن لولا جهودهم التي كانت غايتها الوحيدة خدمة للمعتقد الصادق إذ يكفي أن نتأمل في قول "**البتاني**"[35]: (إنّ الإنسان ليصل عن طريق علم النجوم، إلى برهان وحدة الله ومعرفة عظمته الهائلة، وحكمته السامية، وقوته الكبرى، وكمال خلقه)، كما أنّ الحاجة دعت للتوغل في هذا العلم وما تتطلبه ضرورات الدين من رصد دائم للقبلة، والقدرة على معرفة الأوقات وضبطها كمعرفة أوقات ظهور القمر في أولّ الشهر وفي نهايته، وضبط مواعيد غروب الشمس وشروقها لأنّ هذا يخدم الكثير من الفرائض كالصلاة والصيام، فبنيت المراصد الفلكية التي كان لها دور كبير في تقدم الفلك، إذ أقيم العديد منها في مواضع مختلفة من العالم الإسلامي، كما استخدموا في الأرصادات الفلكية آلات متنوعة منها: "اللبنة"[36]، "ذات الحلق"[37]، "الأسطرلاب"[38]، و"الأزياج"[39]"[40].

أماّ في مجال الطّب فقد أسهم أطباء وجراحوا المسلمين أيما إسهام وهذا جلي واضح في أعمالهم وأبحاثهم التي سرعان ما ترجمت قصد الانتفاع بها كإنجازات "**أبو بكر محمد بن زكريا الرازي**" وما حواه مؤلفه " الحاوي في الطب" الذي كان موسوعة طبية شملت النظريات ومختلف الآراء في الطب معقبا عليها بآرائه في ضوء تجاربه، هذه الموسوعة التي ترجمت إلى اللاتينية عام 1279م من قبل الطبيب اليهودي " **فرج بن سالم**" بأمر من الأمير شارل الأول، وأُعيد طبعه مرارا منذ 1486م فكان ذا أثر عظيم في تقدم الطب في أوروبا، كما ألّف "**الرازي**" في داء "الجذري والحصبة" مستندا في دراساته عل التجربة والملاحظة والتشخيص الدقيق؛ فترجم إلى اللاتينية في أوروبا ثمّ تُرجم إلى عّدة لغات أوروبية منها الإنجليزية، الفرنسية، والألمانية.

و يُعد "**ابن سينا** "من قبل مؤرخي العلوم من مفاخر التراث العربي الإسلامي والفكر الطبي، لما له من أثر بليغ في تطور المعارف الطبية وهذا من خلال ما اجتهد به في وضعه لمؤلفه "القانون في الطب"الذي حوى على أمهات الموضوعات الطبية بأبوابها المختلفة من الطب العام وأمراض الجوارح والأعضاء من الرأس إلى القدم، كما تناول أنواع العقاقير المستعملة – الصيدلة–، وقد ترجم كتاب "القانون" في القرن الثاني عشر الميلادي وكان تداوله واسعا حتى أعيد طبعه في القرن الخامس عشر ست عشرة طبعة، بالإضافة إلى التعليقات والشروح الكثيرة التي نشرت عنه بمختلف اللغات الأجنبية كالعبرية واللاتينية والأوروبية، واستمر تداوله وتدريسه في المعاهد والجامعات الأوروبية إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادي، والأمر نفسه بالنسبة للموسوعة الطبية "الكليات في الطب" "**لابن رشد**" التي لقيت رواجا كبيرا ونالت شهرة في أوروبا.

أمّا "**ابن النفيس**" فقد كان موسوعيا في طبه وهذا واضح من مؤلفه "الشامل في الطب"، ولقد أظهرت دراسات قام بها نفر من الباحثين المحدثين أنّ "**ابن النفيس**" كان أوّل من اكتشف الدورة الدموية من البطين الأيمن إلى الرئة حيث

يخالط الهواء ومنها إلى البطين الأيسر وبذلك يكون قد سبق المكتشفين الأوروبيين الذين يّعزى إليهم اكتشاف الدورة الدموية[41]".

و فيما يخص علم الحيوان والنبات فقد ظهرت تعاليمها في أطوار مبكرة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، منذ القرن الثامن الميلادي، وعلى الرغم من أنّ بعضها وُضع لأغراض أدبية إلا أنها حوت معلومات علمية مهمة، كالمؤلفات المنسوبة إلى "**الأصمعي البصري**" (740- 828)م التي كانت عن الإبل وكتاب "الخيل"وغيرها من الرسائل في النبات والشجر والنخيل؛ وعن الجيولوجيا فقد كانت هناك مؤلفات في الأحجار لاسيما الأحجار الكريمة كمؤلفات "**جابر بن حيان**" و"**الكندي**" هذا الأخير الذي ألّف أيضا في الحديد والصلب وفي استعمالاته المختلفة في صنع الأسلحة وما شابه ذلك، كما أنّ الفتوحات الإسلامية الواسعة والأسفار التجارية البعيدة أسفرت عن اكتشافات جغرافية عديدة منها ما جاء في وصفهم لأقاليم مجهولة من شمال القارة الأوروبية مثل روسية والأقطار الإسكندنافية التي وجدت بها نقودا عربية، كما اكتشف الرحالة العرب جزرا في المحيط الأطلسي كجزر الآزور، وأوجدوا البوصلة البحرية التي كانت جدُّ مهمة في تطوير الملاحة البحرية، كما طور الجغرافيون المسلمون مبدأ الطريقة اليونانية في تقسيم سطح الأرض إلى سبعة مُناخات، فأوجدوا ما يُطلق عليه الآن مصطلح الجغرافية الإقليمية؛ نبغ أعلام في الجغرافيا والتاريخ كا"**لطبري** و**المسعودي**"، كما وصل بعض الرحالة إلى الصين والهند، وخلّف البعض منهم ك**سليمان التاجر**" كتابا ممتعا تضمن تفاصيل رحلاته التي قام بها إلى الهند والصين وقد طُبعت أخبار سياحته بالفرنسية. وتقدّم علم الجغرافيا ابتداء من القرن العاشر، إذ كثرت المعلومات الجغرافية المنظمّة والأسفار البحرية البعيدة الأمر الذي أدى إلى وضع أسس لجغرافيا جديدة لم تكن معروفة من قبل، كما كانت الخرائط التي وضعوها برسم واضح ودقيق معلّمين عليها بخطوط الطول والعرض، وإنشاء نماذج من الكرة الأرضية التي كانت أشهرها كرة "**الإدريسي**" من أهم الإنجازات التي خلّفها المسلمون في هذا الجانب.

إنّ ما ذكر سابقا غيض من فيض ولا يسعنا أن نذكر كل الإسهامات التي قام بها العلماء المسلمون والتي خدمت الإنسانية إلى أبعد مدى، إنجازات كلها إيجابيات مهدت لحياة أحسن وأفضل، ولكن عندما حلّ الترف واستحكمت الملّذات وضّيعت المبادئ الإسلامية لم يتوانى الانحطاط والتدهور أن يلحق بالحضارة الإسلامية ولم يلبث أيضا أن انتقل مشعل الحضارة إلى أياد غير إسلامية واصلت المشوار الحضاري الإنساني فكيف كان نهجها وهل استطاعت فعلا أن تواصل تحقيق هذا المدلول بكافة أبعاده.

إنّها الحضارة الغربية التي كان منطلقها مغايرا لمنطلق الحضارة الإسلامية[42]، فبينما اتخذت هذه الأخيرة من "الدين " منهجا لقيامها نجد الأولى قد طرحت به جانبا ولم ترض إلا بالعقل والعلم، ولها مبرراتها في ذلك لأنّ دينهم محرّف وكلنا يذكر ما عانته أوروبا من جرائم الكنيسة وقهرها وجبروتها على العلم والعلماء حتّى سميت عصورها تلك بالعصور المظلمة، الأمر الذي أدى إلى ظهور "الحركة التنويرية" التي ثارت في وجه الكنيسة ونادت بشعار العولمة؛ وشتان بين ديانة محرّفة ملؤها الزور والكذب وبين الإسلام غير المحرف والذي يعجُّ بحقائق اكتشفت ولا تزال إلى يومنا هذا؛ وبالرغم من هذا نجد أنّ نور الحضارة الغربية قد ذهب بأبصار العديد من العلماء والمفكرين، منبهرين بأضوائها المزيفة لدرجة أنهم لم يُؤدوا سوى دور التابع للمتبوع الأمر الذي أدى -في اعتقادنا- إلى هلاك الإنسانية جمعاء- فكيف كان ذلك !!؟

شهدت بلدان أوروبا الغربية خلال القرن الثامن عشر نهضة علمية شاملة قامت أساسا على العلوم التي وضعها العلماء المسلمون، فتنوعت الأبحاث والتجارب لتشمل مختلف فروع العلم، وكان بذلك اختراعات واكتشافات مهدت لقيام الثورة الصناعية خلال القرن التاسع عشر، وهي ثورة كان لها كامل الأثر على الجانب الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

لقد أحدثت الحضارة الغربية قفزة نوعية في تاريخ البشرية وهذا من خلال الابتكارات والاكتشافات والتطور التقني الذي أحرزته في جميع ميادين الحياة ومجالاتها، من أقمار صناعية وقنوات فضائية، جوّال، حاسوب، نث، فيسبوك، تويتر...الخ[43]؛ فالتقدم العلمي الهائل في "ميدان البيولوجيا والهندسة الوراثية كما في ميدان المعلوماتية، فضلا عن آثار الصناعة والتكنولوجيا على البيئة الطبيعية من جهة، والخطر الذي تُشكله أسلحة التدمير الشامل على البشرية كلّها من جهة ثانية. إنّ تقدم العلم في هذه المجالات كما في غيرها قد أدى، أو من شأنه أن يُؤدي إلى نتائج تتعارض على طول الخط مع القيم الأخلاقية التي تكرست منذ فجر التاريخ البشري، وفي جميع المجتمعات، ولدى مختلف الأديان والفلسفات، بوصفها عنصرا جوهريا في إنسانية الإنسان، إن لم يكن العنصر الجوهري الوحيد"[44].

لقد تخطت الإنسانية في الحضارة الغربية حدود القيم الأخلاقية، بل كان هناك خلط حتى في ضبط المصطلحات وعدم الوقوف على مدلولاتها الحقيقية، حريات وتقدم وتفتح مفرط أدى إلى قلب السنن الكونية، ومظاهر ذلك عديدة نذكر منها: ظاهرة التحول الجنسي وتجرأ الشواذ[45] على تغيير جنسهم من ذكر إلى أنثى أو من أنثى إلى ذكر كالذي كان من الأمريكية المتحولة جنسيا من أنثى إلى ذكر، بدأت بتناول هرمون التستسترون الذكري وأجريت جراحة لتغيير بنية الصدر، ولم ترغب في تغيير أعضائها التناسلية رغبة منها في الإنجاب بوما ما وفعلا كان ذلك وأصبح معترفا به بموجب القانون الأمريكي كرجل، كما أصبح معروفا في العالم بأسره بـ "توماس بيتي" الرجل الذي حمل ووضع بنتا بعد أن ساعدته زوجته نانسي بأن خصبته بواسطة محقن مستخدمة سائلا منويا اشترياه من بنك الحيوانات المنوية؛ مُعلّقا عن رغبته هذه بأنها لا تتعلّق بالجانب الجنسي وإنّما بالجانب الإنساني ! فأيُّ إنسانية هذه التي تتحدث عنها أو يتحدث عنها وهي –هو– قد انتهك حُرمتها وضرب بكلّ قيمها عرض الحائط؛ وعلى إثر هذه البنوك – بنوك الحيوانات المنوية– نستدرج قضية تلك المرأة " التي أوردت الصحف أنّها طالبت بحقّها في الإنجاب من زوجها بعد أن وافاه الأجل المحتوم. لقد سبق لها أن اتفقت مع زوجها على تخزين حيواناته المنوية لدى إحدى المؤسسات المختصة إلى الوقت الذي يتفقان فيه على الإنجاب، ثمّ حدث أن مات الزوج فجأة، فقامت أرملته تُطالب المؤسسة المعنية بـ "مني" زوجها المتوفى، مُعبرة عن رغبتها في وضعه في رحمها والحمل من زوجها بعد وفاته. والقضية طُرحت على القضاء ليقول كلمته"

هذا فضلا عن قضايا أخرى كإمكانية التحكم في جنس المولود وفي ذكائه وقدراته العقلية، بل كان نتاج هذا التقدم ما يُعرف بالاستنساخ وإمكانية تشكيل صورة طبق الأصل من أي فرد كان.

أما في مجال المعلوماتية وتكنولوجيا الاتصال السمعي البصري عبر الأقمار الصناعية، فإنّ عملية هتك الحرمات قد تفشت إلى أمد بعيد من خلال ما يُقذف في شبكة الانترنت وفي غيرها من صور وممارسات تدخل في مجال "الخلاعة".

كلُّ هذا وغيره كثير كان نتاج الحضارة والتقدم الغربي، تطور تقني بات يهدد المثل والقيم بشكل أو بآخر حتى تعالت الصيحات بضرورة الرجوع إلى الأخلاق أو ما يّعرف –بالبيوإتيك– ومنه إلى إنشاء جمعيات دولية انطلقت في شتى أصقاع العالم تعمل على سن القوانين والأنظمة التي تحفظ بها الجينوم البشري والحق الإنساني.

إنّ التقدم الذي أحرزته الحضارة الغربية كان تقدما بلا روح ذلك أنّ مدلولها الحضاري اتخذ من – المادة– محورا ومن العلمانية شعارا، فكانت حضارة خاوية من المعنى، إنها كحبة –الكريستال– التي يمتد بريقها إلى أبعد مدى ويُعتقد أنّها جوهرة –ألماس– وهي في حقيقتها غير ذلك، كثيرون هم من انبهروا بالحضارة الغربية ورأوا أنّ التقدم والازدهار لا يكون إلاّ بتبني أفكارها ومعتقداتها وبتتبع خطواتها حتى أصبح من اللاّزم الترويج لإديولوجياتها، كالعلمانية، الحداثة،...إلخ) للحاق بالركب الحضاري ولإحراز أكبر قدر ممكن من التقدم والازدهار؛ ونعجب لهؤلاء كيف انبهروا بحضارة جوفاء خاوية من المعنى سلبياتها حوت إيجابياتها ولم ينتبهوا إلى أبرز حضارات الإنسانية، التي استطاعت أن تقف على حقيقة المدلول الحضاري بكافة أبعاده ومقاييسه إنها الحضارة الإسلامية[46] التي اعتنت أولا بالجانب الروحي، ولم تكن غاية الاعتناء بالجانب المادي إلا تسخيرا لخدمة الإنسانية فبلغت من الرقي والتقدم ذروته، فكانت حضارة بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى كما كانت حضارة فريدة من نوعها.

وجملة القول وزبدته أنّ المدلول الحضاري لا يتحقق معناه إلاّ إذا كان هناك تزاوج بين الجانب الروحي المعنوي أين نجسد معاني القيم المثلى ومبادئها العُلى معتقدا سلوكا فكرا لينعكس هذا على الجانب المادي من إنجازات علمية ومبتكرات فكرية وتطور تقني، هنا فقط يخرج من رحم هذا التزاوج الحضارة المنشودة والمرجوة التي يسعى إلى تحقيقها ثلّة من المنظرين والعلماء والمفكرين.

الهوامش

1- سنرى لاحقا كيف كانت " الصناعة " عاملا أساسيا في قيام النهضة الغربية، وكيف أثرت في جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

2- ابن منظور، **لسان العرب**، د- ط، دار المعارف، القاهرة، د- ت، م2، ج17، ص 907 / جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، د- ط، دار الكتاب اللبناني، بيرو ت، 1982م، ص 475.

3- حسين مؤنس، **الحضارة**، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، عالم المعرفة، العدد الأوّل يناير 1979م، ص 48.

4- **الحضارة البابلية**: أو حضارة وادي الرافدين، كانت تعرف ببلاد آكد وسومر، ظهرت مابين القرنين (18-6) ق.م، كانت تقوم على الزراعة، ويعدُ حمورابي مؤسسها وأعظم ملوكها؛ تقع أطلال بابل حاليا على مقربة من مدينة الحلّة وسط العراق.

5- **الحضارة الفرعونية**: أو حضارة مصر القديمة، بدأت في حوالي 3150 ق.م، حكمها الفراعنة وانتهى حكمهم رسميا حين غزت الإمبراطورية الرومانية مصر وجعلتها إحدى مقاطعاتها، وتعتبر الأهرامات والمعابد من بين أهم ما خلفته.

6- **الحضارة الهندية**: ترجع حضارة الهند القديمة إلى حوالي 2500 ق.م، أهم ما عرفت به " الفيدا" وهو كتاب متداول فيه منتجات الفكر الهندي، ترجمت على أنها أغاني للسحر، وكانت "اليوبانيشادات" أحد أجزاء الفيدا وهي عبارة عن مجموعة من التساؤلات التأملية.

7- **الحضارة الصينية**: تُعد حضارة الصين من أقدم الحضارات، إذ قبل 600 ألف عام تقريبا، صنع الصيني أداوتا بسيطة تعينه على العيش، وبدأ يكتشف بعض الأدوات الزراعية، وقبل أكثر من 3000 عام بدأوا يستخدمون الأدوات الحديدية، أمّا عن الجانب الثقافي فقد كان كل من لاوتسي وكونفوشيوس من أبرز أعلامها اللّذان أثرا تأثيرا عميقا وواسعا في الأجيال اللاّحقة.

8- **عقيدة**: أصل العقيدة في اللُّغة مأخوذة من الفعل عقد، نقول عقد البيع واليمين والعهد أكّده ووثّقه؛ والعقيدة في اللُّغة تأتي بمعنيين: الأوّل بمعنى الاعتقاد فهي التصديق والجزم دون شك أي الإيمان، والثاني بمعنى مما يجب الاعتقاد به كقولنا الإيمان بالملائكة من العقيدة؛ اصطلاحا:هي التصور الإسلامي الكلّي اليقيني عن الله الخالق، وعن الكون، والإنسان والحياة وعمّا قبل الحياة الدنيا وعّما بعدها، وعن العلاقة بين ما قبلها وما بعدها فالعقيدة تتناول مباحث الإيمان والشريعة وأصول الدين والاعتقادات كالإيمان الجازم بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره وسائر ما ثَبَتَ من أُمور الغيب، وأُصول الدين، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم التام لله تعالى في الأمر، والحكم، والطاعة، والإتباع لرسوله فالعقيدة الصحيحة هي الأساس الذي يقوم عليه الدين وتصح معه الأعمال.وهي الثوابت العلمية والعملية التي يجزم ويوقن بها المسلم.

9- **شريعة:** أمّا لغة فهي مورد الماء أي مكان ورود الناس للماء، وأمّا اصطلاحا فهي ما شرّعه الله تعالى لعباده من الدين، مثل الصلاة، الصوم، الحج؛ وإنما سمي شريعة لأنه يقصد ويلجأ إليه كما يلجأ إلى الماء عند العطش؛ والشريعة في اصطلاح الفقهاء تتخذُ مفهوما متسعا فترادف الأحكام التي سنّها الله تعالى لعباده على لسان رسله.

10- أنظر في هذا: محمد شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، د- ط، دار الشروق.

11- رواه أحمد والترمذي وابن حيان.

12- سورة الإسراء/ آية 70.

13- محمد عبد الله دراز، **مختصر دستور الأخلاق في القرآن**، ط1، دار الدعوة، القاهرة، 1996م، ص - ص 223-274.

14- راغب السرجاني، **الأخلاق والقيم في الحضارة الإسلامية**، من الموقع: www.rasoulallah.net

15- **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث،ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، حديث رقم 1731 – صحيح مسلم، بشرح النووي، ضبط: صدقي جميل العطار، د- ط، دار الفكر، بيروت، 1995م، م6، ج12، ص 31.

16- **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الأمراء على البعوث، حديث رقم 174.

17- **سنن أبي داود**، كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، حديث رقم 3052 – سنن أبي داود، د- ط، دار الجيل، بيروت، 1992م، م 3، ص 168.

18- **صحيح مسلم**، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة، حديث رقم 961، م4، ج7، ص 25.

19- سورة العلق/ آية: 1.

20- سورة البقرة / آية:163.

21- سورة فاطر / آية: 28.

22- نجد من أبرز المفسرين للقرآن الكريم: ابن كثير وتفسيره، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي، فتح القدير لشّوكاني،...الخ)

23- نجد من أبرز الرواة ومن اجتهد في جمع الأحاديث النبوية الشريفة: البخاري في صحيحه، الإمام مسلم في صحيح مسلم، مسند الإمام أحمد، سنن الترمذي، سنن أبي داود، سنن ابن ماجة...الخ)

24- إنّ الآثار العلمية والاكتشافات التي خلّفها العلماء المسلمون أُرخت من قبل المؤرخين الغربيين، فصدرت عدة مصادر ومراجع تتحدث عن فضل العلماء المسلمين في خدمة العلم والإنسانية جمعاء، نذكر منها: دائرة المعارف البريطانية،الموسوعة الدولية، تاريخ العلم لجورج سارطون، فضلا عن الإصدارات العربية.

25- طه باقر، **موجز في تاريخ العلوم والمعارف**، ط1، الدار الدولية للاستثمارات النقابية، مصر، 2004م، ص164.

26- **عبد الله المأمون بن هارون الرشيد** (813 - 833)م: أفضل حكماء بني العباس وأكثرهم رجاحة للعقل، عمّ في زمانه السلام بين العرب والروم ممّا ساعد على انتشار العلم واستقرار الدولة وزيادة دخلها، كان عصره عصر العلم في الإسلام، أنشأ الكثير من المكتبات والمستشفيات وشجّع على نشر العلم لأنّه كان مُحبا له.

27- **أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي** (781 - 847) م: عالم مسلم عراقي، من أوائل علماء الرياضيات المسلمين، حيث ساهمت أعماله بدور كبير في تقدم الرياضيات في عصره، كما كانت له إسهامات في الجغرافيا،علم الفلك، علم رسم الخرائط، وأرسى الأساس للابتكار في الجبر وعلم المثلّثات.

28- طه باقر، **موجز تاريخ العلوم والمعارف** – ص 170.

29- **أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الأزدي** (721 – 815)م: علاّمة عربي مسلم، برع في علوم الكيمياء، والفلك، والهندسة وعلم المعادن والفلسفة والطب والصيدلة، ويُعد أوّل من مارس الكيمياء عمليا، من مكتشفاته الصودا الكاوية، حمض النتريك، حمض الهيدروليك، حمض الكبريت، وكان أوّل من استحضر ماء الذهب، توفي بالكوفة وهو في الخامسة والتسعين من عمره.

30- **أبو بكر محمد بن يحي بن زكريا الرازي** (864 – 923)م: عالم وطبيب مسلم فارسي، أعظم أطباء الإنسانية على الإطلاق، له إنجازات في الكيمياء أيضا، أهم مؤلفاته كتاب الشكوك على جالينوس، كتاب في الفصد والحجامة، وكتاب مخارق الأشياء ،

31- **أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا** (980- 1037)م: لُقب بالشيخ الرئيس لتضلعه في علوم الحكمة والطب، عمل في جميع آثاره على التوفيق بين الحكمة والإسلام فجمع بين العقيدة الإسلامية والفلسفة اليونانية والفارسية والهندية، من آثاره في الطب "القانون" وفي الحكمة موسوعات فلسفية هي الشفاء، والنجاة والإشارات والتنبيهات.

32- **أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم** (965- 1040)م: عالم موسوعي مسلم قدّم إسهامات كبيرة في الرياضيات والبصريات والفيزياء، وعلم التشريح وعلم الفلك والهندسة والطب وطب العيون والفلسفة وعلم النفس والإدراك البصري، له العديد من المؤلفات والمكتشفات العلمية التي أكدّها العلم الحديث.

33- **أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني** (973- 1048)م: عالم مسلم أزبكي، كان رحالة وبرع في الفلسفة والفلك والجغرافيا والجيولوجيا والرياضيات والصيدلة، كما كان مؤرخا مترجما لثقافات الهند، وُصف بأنّه من بين أعظم العقول التي عرفتها الثقافة العربية الإسلامية وهو أوّل من قال بأنّ الأرض تدور حول محورها، له مؤلفات تزيد عن المائة والعشرين مؤلّفا.

34- **إقليدس**: رياضي يوناني عاش بين نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث قبل الميلاد، علّم بالإسكندرية واشتهر بكتابه "الأصول" الذي عرض فيه نظرية الأعداد وقواعد الهندسة بصورة منهجية بالاعتماد على منهج المسلمات.

35- **أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان ألبتاني** (950 – 929)م: عالم فلكي مسلم، ولد في بتان من نواحي حران من مناطق الأكراد الواقعة على نهر الفرات في سوريا، عاش في عصر ازدهار العلوم في عهد الخليفة المأمون، برع في الهندسة والجغرافيا والفلك والرياضيات، يعد أيضا من مشاهير أعلام العلوم الطبيعية، أطلق اسمه على منطقة من مناطق القمر، كما كانت له إسهامات في مجال علم الجبر وحساب المثلّثات وإليه ينسب الفضل في ابتكار النسب المثلثية الأساسية.

36- **اللبنة:** عبارة عن جسم مربع مستو، يستعمل لقياس أبعاد الكواكب وحساب الميل الكلي وعرض البلدان

37- **ذات الحلق:** عبارة عن خمس دوائر من نحاس كلّ منها يُستعمل لقياس دائرة نصف النهار ودائرة معدل النهار ودائرة منطقة البروج ودائرة العرض ودائرة الميل والدائرة الشمسية لمعرفة سمت الكواكب.

38- **الإسطرلاب:** كلمة يونانية، ولفظها باليونانية أسطرلابون المكونة من كلمتين، أستر وتعني نجم ولابون وتعني مرآة، وقد عرف مبدأ الإسطرلاب في حضارة وادي الرافدين واستعمله اليونان ولكن الفلكيين العرب حسّنوا فيه وتفنّنوا في صنعه وتعدد أنواعه، وأضيف إليها 300 استعمالا منها حساب أوقات الصلاة، إيجاد اتجاه القبلة، قياس عمق الآبار، قياس ارتفاع الجبال، ووُضع بها درجات الطول والعرض.

39- **الأزياج:** ج زيج، وهي جداول فلكية خاصة تبين مواقع النجوم وحركاتها عبر الفصول، والسير بحسابات رياضية، من أشهر الأزياج زيج الفزاري وهو من أوّل الأزياج العربية.

40- زيغريد هوبكه، **شمس العرب تسطع على الغرب**، تر: فاروق بيضوي، ط8، دار الجيل، بيروت، 1993م، ص 127.

41- طه باقر، **موجز تاريخ العلوم والمعارف**،م س ص 172.

42- أنظر محمد محمد حسين، **الإسلام والحضارة الغربية**، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1969م.

43- صفاء كامل الجبوري، **موسوعة العلماء والمكتشفين والمخترعين**، ط1، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2003م. م س، ص 37.

44- محمد عابد الجابري، **قضايا في الفكر المعاصر**،ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997م،ص 35.

45- هذا الشذود الذي لم يسلم منه حتى أولئك الذين ينظر إليهم الغرب كأحد العقول الفكرية ومثالنا – **بروس باور من مواليد 1956**م- وهو كاتب وناقد أمريكي، تدور أعماله وتتمحور بشكل رئيسي حول انتقاد قضايا الفكر الإسلامي، إذ نجد في مؤلفه "**عندما نامت أوروبا**" يحلل قضية أنّ الدفاع الأوروبي عن الأصولية الإسلامية هذه الأخيرة التي يراها ستفترس أنظمتها الليبيرالية، لذلك فهو ضد التكامل مع الإسلاميين، ويحذّر من ارتفاع معدلات مواليد المسلمين في أوروبا لأنّ هذا سيؤدي حسب رأيه إلى الهيمنة الإسلامية على القارة الأوروبية وهذا في غضون ثلاثون سنة ويضع الحلول لتفادي هذا وذلك بإلغاء تعدد الثقافات المتفشي في القارة الأوروبية، أما في مؤلفه "**الاستسلام استرضاء الإسلام**" الذي أصدره سنة 2009م فهو يدع فيه إلى إرساء حضارة أوروبية غير مطعمة بالثقافة الإسلامية.،إنّها إسلاموفوبيا يحذّر

منها ويحاربها بقلمه، بروس باور الكاتب الناقد شاذ جنسي انتقل من نيوروك إلى امستردام سنة 1998م، ليتمكن من أن يعيش كرجل لوطي، ويعيش حاليا في أوسلو مع زوجه الذكر بالنرويج. أنظر في هذا " بروس باور الذي يُطالب بإبادة الجاليات الإسلامية" مقال لـ: عبد الرحمن أبو المجد من الموقع: www.alukah.net.

46- إنّ المتتبع للحضارة الإسلامية والوقوف على مبادئها السمحة وتعاليمها أدي باعتناق الكثير من المفكرين الغربيين للإسلام أنظر في هذا:محمد الصّالح الصديق، **مفكرون غربيون يعتنقون الإسلام** و**يتحدثون عنه**، د-ط، دار هومه، الجزائر، 2003م